الذين سبوا آلهتنا..!!

احمد طلعت المحامى

لو كان الاستاذ محمد حسنين هيكل قد قرر ان ينضم الي صفوف الجبهة الديموقراطية فاهلا به وسهلا فهو كاتب كبير ومفكر قدير وباحث متعمق في شئون السياسة والحكم لكننا نرجو ان يوافقنا الاستاذ هيكل على ان الانضمام الى الجبهة الديموقراطية لايكفى له مجرد رفع شعار كالذى رفعه في معرض الكتاب او في حديث اجرته معه اذاعة لندن وقال فيه «أن مالدينا الآن هو مسخ ديموقراطي.. ونحن نطلب حق المشاركة واحترام حقوق الانسان واحترام الاختلاف على السلطة..» فالديمقراطية تبدأ بقناعة عميقة بأن الشعوب هى مصدر كل السلطات وبان الحكم هو تعبير عن الاغلبية عن طريق صناديق الانتخاب، ثم تأتى بعد ذلك المقارنة بين مانحن فيه، وما يجب ان يكون عليه حالنا، فهل هذه «القناعة» قد اصبحت موجودة الآن عند الاستاذ هيكل، او على اضعف الايمان قد وجدت طريقها مؤخرا الى اعماقه..؟؟

فالمعروف عن الاستاذ هيكل انه كان من اهم انصار النظام الشمولى بل انه كان اكبر «المنظرين» لذلك النظام واكبر المدافعين عنه باقتدار يحسده عليه الكثيرون، فهو الذى ادخل فى قاموس السياسة الفاظا مثل «البطل التاريخى الذى يبعث به القدر وتتجسد فيها آمال امته» وهو الذى أعطى لهذا البطل حق الانفراد بالحكم وتقرير المصير دون المرور على صناديق الانتخاب، وهو نوع من «الحق الالهى» الذى كان يبرر به ملوك فرنسا سلطتهم فى القرن التاسع عشر!!

والاستاذ هيكل هو الذى سخر من التجربة الديمقراطية قبل الثورة، وهزأ منها، ووصف اعظم والمع الزعماء السياسيين الذين حاربوا الاستعمار واحترموا الدستور، ووضعوا البلاد على طريق النهضة الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية، وصف هؤلاء بأنهم «يصلحون للمتاحف بأكثر مما يصلحون لمقاعد السياسية والحكم» وهذا هو نص عبارته التى وردت في مقال شهير له مازالت تحتفظ به الذاكرة، كما يحتفظ به ايضا «ارشيف» جريدة الاهرام..!!

ونحن لانريد ان نناقش الاستاذ هيكل فى آرائه التى سبق ان ابداها دفاعا عن النظام الشمولي، فهذا رأيه، والديموقراطية تحترم كل الآراء حتى وان اختلفت معها، لكننا - فقط - نتساءل هل يمكن ان يستقيم الدفاع عن الشمولية والديموقراطية فى نفس الوقت..؟ وهل يمكن ان يكون صحيحا مايقال عن الشئ وعن نقيضه..؟ والاجابة بطبيعة الحال هى استحالة الاتفاق بين الاضداد، فاما ان تكون الشمولية والزعيم التاريخى هو الصواب، واما ان تكون الديموقراطية وسيادة الشعب هى الصواب. ولامجال للجمع بينهما او الدفاع عنهما فى نفس الوقت، لكن الاستاذ هيكل سوف يبادر - بذكائه المعهود - للرد على هذا التناقض بنظريته التى حاول الترويج لها فى مناسبات عديدة وهى نظرية فترات التحول التاريخى التى تتطلب كل منها نظاما سياسيا مختلفا يتفق مع ضرورات «التحول» الكبير فى حياة الشعوب.. وسوف يقول لنا الاستاذ هيكل انه كان شخصيا - واثناء فترة الحكم الشمولى - ينقد فى مقالاته «بصراحة» بعض سلبيات ذلك النظام، وسوف يستشهد بمقالاته التى كتبها فى نقد ادارة القطاع العام، وممارسات المؤسسة العسكرية، وزوار الفجر، واداء الاتحاد الاشتراكى بين الجماهير.. الى غير ذلك مما تضمنته - بالفعل - بعض مقالاته فى عهد جمال عبد الناصر لكن الاستاذ هيكل لايستطيع ان ينازع فى ان هذا النقد «المشكور» لم يكن موجها الى جمال عبد الناصر نفسه «البطل التاريخى» وانما كان هدفه تبرير فشل المشروع الحضارى للبطل التاريخى،

ومحاولة لالقاء مسئولية الفشل على الاجهزة المحيطة بعبد الناصر، فالبطل التاريخى لايمكن - فى رأى الاستاذ هيكل - ان يخطئ او ان يتحمل مسئولية الفشل، لذلك كان النقد عن ادارة.. وممارسات.. وأداء ولم يكن عن فكرة القطاع العام او امتيازات المؤسسة العسكرية او الاتحاد الاشتراكى ذاته..

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان النقد كان موجها لبعض اعوان النظام وكان يتم فى «حماية» البطل التاريخى ذاته، وهى حقيقة اكدتها العلاقة «الباردة» بين هيكل من ناحية وبقية اعوان عبد الناصر من ناحية اخرى، وهى علاقة كان يسعد بها البطل التاريخي ويستفيد منها لاسباب تتعلق «بتوازن» سلطات الحكم.

كما ان الاستاذ هيكل لايستطيع ان ينازع فى ان هذا النقد لم تكن غايته او المقصود منه الدفاع عن الديمو قراطية او المطالبة بتطبيقها، وانما كان مجرد نوع من انواع النقد الذاتى الذى يساعد على «تجميل» النظام الشمولى ذاته ويقويه في مواجهة خصومه من «الديموقراطيين» وهو نقد تعترف به كل الانظمة الشمولية ابتداء من الماركسية اللينينية فى الاتحاد السوفيتي السابق، وانتهاء بالناصرية الهيكلية فيما سمى فى مصر بالميثاق..!!

والذى يعنينا من ذلك كله ليس هو ماكان يعتقده الاستاذ هيكل من نظريات الحكم والسياسة او مايبرر به قناعاته ومعتقداته فهذا كما سبق ان قلنا هو حقه الذى لايملك احد ان يصادر عليه كما ان انتقاله من الدفاع عن المذهب الشمولى الى اعتناق الديموقراطية ليس فيه ايضا ماندهش له او نستغرب منه، لكن الذى يعنينا هو ان يكون هذا «التحول» نتيجة للاقتناع بسلامة النظام الديمقراطى وهو مايعنى - بالضرورة - الاقتناع بفساد الرأى القديم والتخلى عنه اما اذا كان الاستاذ هيكل يرى ان الدفاع عن الديموقراطية يمكن ان يصاحب الدفاع عن الشمولية، والمطالبة بالمشاركة واحترام حقوق الانسان يمكن تتواكب مع تبرير الانفراد بالسلطة، ورفع شعار احترام الاختلاف على السلطة لايتعارض مع اتهام الشرفاء ووضعهم فى المعتقلات، فاننا لانكون امام «اقتناع» بفكر جديد، وانما نكون بصدد محاولة للجمع بين المتناقضات تماما كمن يحاول أن يجمع بين الكفر والايمان، او يمتدح الجاهلية ويمتدح الاسلام!!

لذلك فاننا ونحن نرحب بانضمام كاتب كبير مثل الاستاذ هيكل الى صفوف المؤمنين بالديموقراطية والمدافعين عنها، نتمنى ان يعلن - بنفس الاقتدار - اسباب اقتناعه بفشل الانظمة الشمولية وآثارها المدمرة على مصائر الشعوب، وهو مايتطلب منه قدرا من الشجاعة نعلم انه لاينقصه، فالاجيال التى سمعت الكثير من الاستاذ هيكل فى تبرير الشمولية من حقها ان تسمع منه الآن تقييما امينا لنتائجها وآثارها، من منطلق «موقعه» الجديد بين الديمقراطيين، وليس من منطلق النقد الذاتى الذى مارسه من «فوق» رؤوس الشموليين!!